مسألة الحج في برامج الحركة الوطنية من خلال وثائق من الأرشيف الفرنسي (1945/1954)

THE ISSUE OF HAJJ IN THE PROGRAMS OF THE NATIONAL MOVEMENT THROUGH DOCUMENTS FROM THE FRENCH ARCHIVES (1945/ 1954)

الدكتور: هواري قبايلي Dr. Houari KEBAILI

جامعة معسكر University of Mascara

kebaili_houari@yahoo.fr

استلم: 2018/04/02	***Received:***	قُبل للنشر: 2018/07/23	***Accepted:***

ملخص:

لقد حاولت السلطات الاستعمارية منذ احتلالها للجزائر، الحد من الحريات السياسية والدينية للجزائريين بكل الطرق، وعبر سلسلة من القوانين الجزرية المانعة لأبسط الحقوق في الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية، ومنذ الوهلة الأولى،أرقت السلطات الإستعمارية ظاهرة الحج ومدى تقديس الجزائريين لهذه الشعيرة باعتبارها ركنا من أركان الدين، وملاذا للأرواح قبل الأبدان، ومما زاد من تخوف السلطات الاستعمارية من فريضة الحج طابعها العابر للحدود، فتخوفت من هذه الرحلة وتداعياتها المحتملة على الحجاج من جراء اختلاطهم أثناء الحج في الحجاز بنظرائهم من شتى بقاع الدنيا، وإمكانية تأثرهم بأفكار وحركات وطرق قد تحمل فكرا مناهضا لسياساتها وهيمنتها على مستعمراتها في الشمال الإفريقي، ولذلك ورغم عدم منعها النهائي لفريضة الحج، إلا أنها حاولت التأطير والإشراف عبر سلسلة من القوانين، اتسمت بالتضييق قدر الإمكان والمنع لأتفه الأسباب، وأمام هذا الواقع الخانق للحريات الدينية، لم يستسلم الجزائريون الراغبون في أداء فريضة الحج، وسوف تعرف فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ظاهرة "الحج السري"، لكن فرنسا قابلت ذلك بعقوبات ردعية. وأمام هذا الواقع لم يفوت أعيان ونواب الجزائريين في

مختلف المجالس والهيئات أي فرصة للتنديد بسياسة التضييق عن الحريات الدينية للجزائريين ، المطالبة باسترجاع الأوقاف وتطبيق قانون فصل الدين عن الدولة ليشمل شؤون الدين الإسلامي أسوة بالأديان الأخرى، كما سوف تتصدى تيارات الحركة الوطنية للسياسات الاستعمارية المصادرة للحريات الدينية ، وتكتف من نشاطاتها السياسية والدعائية أثناء مواسم الحج ، منتهزة هذه الفرصة لتواصل مع هيئات وشخصيات وحركات إسلامية في المشرق والحجاز ، والقيام بحملات دعائية منددة بسياسة فرنسا الفاشلة في محاولتها الإشراف وتنظيم شؤون الحج.

الكلمات المفتاحية: فريضة الحج، السياسة الإسلامية الفرنسية.

Abstract:

Since it's occupation of Algeria, the colonial authorities tried to limit the political and religious freedoms of the Algerians in every way, and through a series of punitive laws which prevent the most basic rights in the belief and practice of religion rites.

From the outset the colonial authorities were disturbed by the phenomenon of pilgrimage and the extent of the Algerian reverence for this rite, which is considered one of pillars of religion, and refuge for the spirit before the body. Also, the thing which increased the fear of the colonial authorities from the pilgrimage is its transboundary nature, so they were apprehensive about this trip and its possible repercussion on the pilgrims because of their mixing in the Hijaz during Hajj , with their counterparts from different parts of the world , and the possibility of being influenced by ideas and methods against its policy and its dominance over its colonies in north Africa.

So, although they do not prohibit Hajj, they tried to control and supervise it though a series of laws, characterized by narrowing as much possible and prevention for the most trivial reasons. Against this reality limiting freedoms, the Algerians who wish to perform Hajj did not surrender, and the period of French occupation of Algeria will know the phenomenon of secret pilgrimage, but France face it with deterrent laws.

Against this reality , the Algerian elected and notables denounced this policy of restricting religious freedoms, and called for the restoration of "Waqfs ", and separation of the religion from the state including the Islamic religion's affairs. Also, the national movement steams struggled against colonial policy which have suppressed religious freedoms, and intensify its political activities during the season of pilgrimage, taking the chance to communicate with Islamic personalities and movement in the Mashreq and Hijaz , and denounce the failed policy of France in supervising and organizing the pilgrimage.

Keywords : *Algerian national movement, pilgrimage, Algeria, muslim politics*

October 27th, 2018 ***corresponding author: kebaili_houari@yahoo.fr***

مقدمة

ظلت فريضة الحج من أهم المسائل الشائكة التي شغلت اهتمام السلطات الاستعمارية،نظرا لطابعها العابر للحدود، لما تستوجبه رحلة الحج إلى البقاع المقدسة من تنقل خارج البلاد، وهو الأمر الذي كان يتيح للحجاج الجزائريين التنصل من قيود الرقابة الفرنسية ولو لمدة محدودة، وهذا ما كانت تخشاه السلطات الإستعمارية،حيث يمكن لبعض من كانت تسميهم بـ"المشوشين" التأثير على الحجاج الجزائريين، واستغلال فرصة الحج لبث أفكار سياسية مناهضة للاستعمار[1] ، الأمر الذي دفع بالسلطات الاستعمارية لتوخي الحذر والحيطة، والعمل على إرسال الجواسيس لمراقبة وفود الحجاج.

إشكالية الموضوع:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن جملة من الأسئلة المرتبطة بمفاصل هذا الموضوع اعتماداً على ما هو بين أيدينا من وثائق أرشيفية تحصلنا عليها من مركز الأرشيف الخاص بمدينة "إكس أون بروفانس" بفرنسا-Archives d'Outre mer ,Aix-en-Provence:

ماهي ردود فعل الحركة الوطنية،من سياسة المنع والتضييق التي مارستها السلطات الفرنسية اتجاه فريضة الحج؟ وكيف استغلت الحركة الوطنية مواسم الحج لبث نشاطاتها ودعايتها للتعريف بالقضية الوطنية؟

جمعية العلماء المسلمين ومسألة الحج:

كان من السنن الحميدة التي دأب عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس،هي توديع الحجاج بعدما يزودهم بالنصائح والإرشادات[2] ،وغالبا ما كان يسمح له بتفقد السفينة الناقلة للحجاج، لطمأنة الرأي العام "الأهلي" –بالتعبير الفرنسي– بظروف النقل، وفي هذا الصدد دأبت الصحافة الإصلاحية على انتقاد شركات النقل البحري وأصحاب الامتياز، التي كانت تنقل الحجاج في سفن أقل ما يقال عنها أنها تصلح –في معظم الحالات– لنقل أي شيء إلا البشر، كما كان

(1) Luc Chantre ,Le pèlerinage a la Mecque a l'époque coloniale,(1866-1940) :France –grande Bretagne – Italie, thèse de doctorat, université de Poitiers, 2013,P118.

(2) جريدة الشهاب، العدد102، 2أبريل 1938.

الشأن في رحلة سنة 1937 مع السفينة "مندوسة" « Mandouza"، والتي كثر الكلام حينها حول صلاحيتها لنقل الحجاج،ولتهدئة الخواطر تم السماح للشيخ بن باديس بتفقد السفينة قبل رحلة الذهاب[1] .

ويبدو أن أعضاء جمعية العلماء المسلمين كانت لديهم اتصالات ومعارف عديدة وعميقة مع شخصيات في الحجاز،تعود إلى فترة إقامتهم المبكرة في هذه البلاد المقدسة في مراحل التكوين العلمي، سمح لهم ذلك –كما قلنا–بنسج علاقات ومعارف مع هذه النخب المهمة في الحجاز من علماء وأعيان وأثرياء،مما ساعدهم على توظيف هذه الشبكة من العلاقات في خدمة القضية الوطنية.

والجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر على الجانب الجزائري فقط بل عملت جميع الحركات الوطنية التحريرية في أقطار المغرب العربي على استغلال فريضة الحج لبث أفكارها والتنسيق فيما بين أعضائها، والاتصال بالجهات الخارجية في المشرق، وتذكر التقارير الفرنسية أن المدعو "بيوض بن إبراهيم" تقدم بطلب الذهاب إلى الحج، لكن هذه التقارير شككت في هذا المسعى وادعت أنه بحكم انتمائه إلى حزب الدستور التونسي كان يريد لقاء الشيخ "عبد العزيز الثعالبي"،و"طفيش إبراهيم" المنفيان من تونس[2] ،كما تشير التقارير إلى اللقاء الذي جمع بين الحجاج الجزائريين في القاهرة بالشيخ "فضيل الورتلاني"، و"الحبيب بورقيبة" سنة 1945م، هذا الأخير منح أحد الحجاج مذكرته الموسومة بـ"فرنسا أمام المسألة التونسية"، ومن جهة أخرى حظي الحجاج باستقبال من طرف السيدة "قوت القلوب" ممثلة الطريقة الصوفية الدمرداشية،التي ينتسب إليها غالبية بائعي العطور في القاهرة، والتي كانت تكن احتراما للثقافة الفرنسية، كما استقبلهم كذلك السيد "يوسف بامية" ختن الأمير "مختار الجزائري" رئيس لجنة الدفاع عن شمال إفريقيا، ودعا الجزائريين إلى زيارة فلسطين، أما في طرابلس فقد تمكنوا من لقاء الملك إدريس السنوسي[3] .

وفي نفس الوقت كلف الشيخ البشير الإبراهيمي حاجين جزائريين بتقديم وثائق مهمة للشيخ "محمد ناصيف" وهو من أثرياء الحجاز،ليقدمها بدوره إلى عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية[4] .

---

(1) الشهاب، وداع الحجاج، العدد147، 20جانفي1939.

(2) AOM(Archives d'outre mer , Aix-en- Provence, France) , 16H92.

(3) AOM, Note sur le pèlerinage 1945, 81F841.

(4) Ibid.

وفي موسم الحج لسنة 1946 اتهمت جريدة الإخوان المسلمين "المسلمون"فرنسا بمنع رعاياها من الحجاج النزول بمصر، بينما ردت الصحف الأوربية أن هذاالإجراء كان قرارا اتخذته السلطات المصرية[1] ، كما أمر "حسن البنا" المراقب العام لجماعة الإخوان في خطاب له في الحج بتشكيل قوة للتصدي للميلشيات الصهيونية، فهال ذلك السلطات الفرنسية،خاصة بعدما وجدت مناشير بهذا الشأن عند بعض الحجاج الجزائريين[2] ،زاد من ذلك اتصال أعضاء من حركة الإخوان بالجزائريين في موسم الحج لسنة 1947،الذين طلبوا منهم التبرع بالأموال والتطوع للقتال في فلسطين والدعاء لنصرة المسلمين[3] .

وفي سنة 1946 دائما اجتمع بعض الحجاج ونددوا بمجازر الثامن 1945، لكن أعوان فرنسا وعملاءها تدخلوا وجاءوا ببعض الأدلة الواهية لتزييف الحقائق والدفاع عن فرنسا[4] ،كما وزعت على ظهر السفينة أطوسAthos مناشير حمراء اللون طبعت في الجزائر وأخرى في المغرب تشرح مناسك الحج، ومن شدة توجس أعوان الإدارة الفرنسية قام محافظ الحكومة بتليغ السلطات العليا بالأمر لاتخاذ التدابير اللازمة[5] .

وكذلك من الأمور الملفتة للانتباه أن الحجاج في بعض الأحيان كانوا يحملون رسائل خاصة يكلفون بها من طرف بعض الآباء إلى أبنائهم المستقرين أو العالقين في الحجاز والمشرق،أو يقومون بإيصال الودائع،ففي موسم الحج لسنة 1950م كلف الشيخ "الطيب المهاجي" أحد الحجاج واسمه "الحاج الحبيب" أن يسلم ابنه "زدور بلقاسم" والذي كان طالبا يدرس في مصر مبلغ 50 ألف فرنك، وقام بتسليمها بعد رسو السفينة في ميناء بورسعيد[6] .

وفي هذه السنة ادعى رجل يدعى" جيلالي صادق محمد أحمد"،يبلغ من العمر ثلاثين سنة، أنه المهدي المنتظر،وأنه يأتيه الوحي عن طريق الملك جبريل عليه السلام، والذي أمره بالظهور في 21 أبريل 1950 بعد صلاة الجمعة، وطرق أبواب الصحف ليعرف بنفسه، مدعيا كذلك أن ظهوره يمهد لعودة المسيح[7] ،ولكن اللافت للانتباه أن هذا الرجل لم يدَّعي هذا الادعاء إلا بعد أدائه مناسك الحج، ويمكن أن يكون قد التقى هناك ببعض المتأثرين بهذه الأفكار المهداوية

(1) Echo d'Oran 7/11/1946.
(2) AOM, Pèlerinage 1946, 81F841.
(3) AOM, Renseignement, 5I199.
(4) AOM, Renseignement 1947, 4I77.
(5) AOM, Rapport Tracol 1947, 81F839.
(6) AOM, SLNA, Pèlerinage 1950, 5I200.
(7) AOM, Renseignement sur l'Imam EL Mahdi, 4I176.

الخلاصية وتلقف منهم هذه الفكرة، والملاحظ كذلك أنه اختار للخروج شهر أبريل، وهو شهر مقدس لدى ديانات عديدة وفيه ينتظر ظهور إله الخصب "تموز" في المعتقدات البابلية الأشورية، ويبدو أنه كان مطلعا شيئا ما على هذه الأفكار،أو كان يؤتمر بأوامر غيره.

أما في موسم عام1952،فقد كان مميزا بالأحداث إذا حظره الشيخ البشير الإبراهيمي لأداء فريضة الحج، فحظي باستقبال حافل من طرف السلطات الحجاز، التي تحملت تكلفة الإيواء والإقامة، وخصصت له سيارة من سيارات العائلة الملكية، كما استضافه أحد كبار العلماء أثناء إقامته بجدة، وتشير الوثائق الأرشيفية الفرنسية على أنه نظم له محافل في مكة والمدينة ألقى خطباً بمستوى أدبي وعلمي رفيع، لكنه تحاشى في خطاباته الخوض في الأمور السياسة، اللهم إلا في الجلسات الخاصة، وأوصى بوجوب نشر العلم والمعرفة في أواسط الشعوب الإسلامية للتخلص من الهيمنة الغربية،وأكدت التقارير الفرنسية أن خطاباته كانت معتدلة، كما منحه الملك السعودي حوالي 1000 جنيه إسترليني، ووعده بإرسال كتب دينية وثقافية لإثراء مكتبات الجمعية[1] ،لكن أثناء رحلة الذهاب قام حجاج مغاربة بتعليق صور السلطان المغربي "محمد الخامس"،وكانت المرة الثانية التي تحدث فيها هذه الحادثة، حيث شهدت سنة 1950منفس الحالة،بعدما تم تعليق صور الملك محمد الخامس في مسجد السفينة، هذا ما أزعج الحجاج الجزائريين الذين رغم احترامهم الشديد للسلطان المغربي إلا أنه لا يمكن تعليق الصور في أماكن العبادة،إضافة إلى ذلك رفع المغاربة أكف الدعاء بالنصرة والتحرر للمغاربة والتوانسة واستثنوا الجزائريين[2] .

كما قام الشيخ "حسين محمد الصغير" المدعو "أحمد بن شريف" ممثل جمعية العلماء، ومراسل جريدة المغرب العربي والبصائر،في موسم الحج لسنة 1951 بإلقاء دروس أثناء الرحلة على ظهر السفينة،تحمل في طياتها الاتجاه الإصلاحي الخالص،وكما أن هذا الأخير كان على اتصال بالشيخ البشير الإبراهيمي يعلمه بكل صغيرة وكبيرة[3] .

وعاود الشيخ البشير الإبراهيمي الكرة وحج سنة 1953م،وقام بالاتصال بالعديد من الشخصيات الإسلامية، أبرزها الرئيس "محمد نجيب"،حيث تباحثوا خلالها حول الأوضاع في الجزائر، وربما بسبب هذا اللقاء ألقى محمد نجيب

(1) AOM, Pèlerinage 1952, 81F840.
(2) AOM, SLNA، Pèlerinage 1950, 4I176.
(3) AOM, Rapport pèlerinage a la Mecque 1951,5I200.

خطابا حادا في موسم الحج ندد فيه بالسياسة الفرنسية المنتهجة في المغرب العربي، كما شجب بقوة تنحية السلطان المغربي عن العرش.[1]

وبالرجوع إلى الوثائق الأرشيفية الفرنسية نجدها تشير إلى أن "الشيخ العربي التبسي" أدى فريضة الحج في موسم عام 1954م، وفي طريق الرجعة اتصل بالشيخ البشير الإبراهيمي بالقاهرة،ثم قصد بعدها الشام حيث التقى مع الفضيل الورتلاني[2] .

كما ورد في بعض التقارير التي رفعت للسلطات الاستعمارية رواج إشاعات حول دعوة زعماء جمعية العلماء المسلمين في الجزائر للذهاب إلى الحج بقوة،لكن بعد التحري عن الأمر تبين أن مسؤولي الجمعية في معسكر أوصوا الناس بخلاف ذلك، وذكروا أنه من الأولى إعادة ترميم المدارس وتوسيعها[3] .

النشاط السياسي والدعائي لأحزاب الحركة الوطنية أثناء مواسم الحج:

شكل موسم الحج فرصة سانحة لعددٍ من زعماء الحركة الوطنية للذهاب في مهمات إلى خارج البلاد،ويبدو أن الأجهزة الاستخباراتية الفرنسية كانت متفطنة لهذا الأمر،وللحيلولة دون ذلك كانت تصدر أوامر المنع من الذهاب إلى الحجاج في حق بعض الزعماء،من ذلك رفضها لطلب الدكتور "سعدان" للسماح له بالذهاب مع البعثة الطبية بدريعة نشاطاته السياسية، وبسبب مصاهرته للمدعو "الحاج الشاوي"،وهو رجل أعمال جزائري مستقر في المدينة[4] ،كما رفضت طلب ممرضة تعمل في عيادة الدكتور "بن جلول" للذهاب مع البعثة الطبية خوفا من استغلالها لهذه الفرصة لتمرير رسائل أو القيام بنشاطات أو اتصالات باسم الدكتور بن جلول[5] .

لكن كل ذلك لم يردع أعضاء الحركة الوطنية من استغلال الحج للقاء بعض النشطاء المشارقة، ففي سنة 1946،وبالضبط في ليلة الثاني من نوفمبر التقى "الأمير منصور" في مزدلفة ببعض الحجاج الجزائريين من ضمنهم أشخاص من مدينة المحمدية (معسكر) ، وتطرق إلى القضية الجزائرية، وأكد لهم أن بريطانيا تحاول إقامة مملكة حرة في الجزائر بقيادة الأمير "سعيد" حفيد الأمير عبد القادر.

---

(1) AOM, Rapport Freychet 1953, 81F841.
(2) AOM, Rapport 1954,81F647.
(3) AOM, Pèlerinage 1954, 5I202.
(4) AOM, Renseignement confidentiel, Jan.1933, 16H97.
(5) AOM, Renseignement confidentiel, 27Fev.1936, 16H97.

وفي الرابع من نوفمبر ألقى الشيخ "حسن البنا" مؤسس حركة الإخوان المسلمين خطبة في منى حضرها حوالي 5000 حاج،فتح فيها النار على القوى الاستعمارية وهتف بقوة "يحيا استقلال بلدان الشمال الإفريقي"[1] .

وقبل ذلك وبالضبط في موسم الحج لعام1945،حاول وفد من أعيان تلمسان الذهاب للحج، وانتهاز الفرصة للتباحث حول إمكانية النظر في قضية استقلال الجزائر، وذلك عبر اتصالات سياسية مع فعاليات ومنظمات سياسية في المشرق على الأقل أن يكون هذا الاستقلال وفق النمط المصري في ذلك الوقت بعد اتفاقية سنة 1936م،وإن تعذر ذلك بحث إمكانية منح استقلال لمنطقة تلمسان وأحوازها على غرار النظام الذي كان قائما في مدينة طنجة المغربية[2] .

وتشير الوثائق الأرشيفية إلى أن قيادة حزب الشعب الجزائري وكلوا المناضل "الشاذلي المكي" لتمثيل الحزب في المشرق وذلك سنة 1945، فاستقر به المقام في القاهرة،ما أتاح له الفرصة للتردد كثيرا على الحجاز خاصة في مواسم الحج، كما أشرف هناك على توزيع نشرية من أحدى عشرة صفحة تقريبا،تكشف بالأرقام والإحصائيات أعمال فرنسا في الجزائر، لفائدة الأوربيين على حساب الجزائريين المهمشين اجتماعيا، واقتصاديا وثقافيا، وهي تبين بحق التمييز العنصري للاستعمار البغيض[3] .

وكانت دعوات أهل الحجاز دائما بعد لقائهم الحجاج الجزائريين بدعوتهم للتخلص من الحاكم "الرومي". ويُؤَمن الجزائريين على ذلك، منهم من يردها مجاملة لا غير، رغم أن البعض كان يعترض على ذلك بشيء من الازدراء والسوء، حيث تعرض بعض الجزائريين للضرب بسبب بعض السلوكيات التي يراها الوهابيون ضرب من البدع و الشركيات،وطالما استفزوا الحجاج الجزائريين بقولهم:"إنكم تفضلون البقاء تحت سيطرة الكافر،الذي يشجعكم على عبادة الموتى والقبور، الأشجار... إرجعوا إلى كفاركم وعيشوا حياة الشرك، أليس من الأجدر بكم أن تواجهوا المحتل والجهل"[4] ،ويبدو أن هذه التصرفات المعزولة كانت تستفز الحاج الجزائري الذي كان يستشيط معها غيظا،لكنها لا محالة كانت تؤثر فيه وتجعله يطرح الكثير من الأسئلة والملاحظات.

ساهمت هذه الدعاية التي كانت تقوم بها الحركات الوطنية المناهضة للمحتل ضد فرنسا وكل القوى الاستعمارية أثناء مواسم الحج،في الإساءة لسمعة فرنسا،وهذا ما أشار إليه تقرير فرنسي سنة 1949الذي حذر من عواقب هذه

(1) AOM, Rapport Bencheneb 1946, 81F841.
(2) AOM, Pèlerinage 1945, 5I199.
(3) Ibid.
(4) AOM, Renseignement , 16H92.

النشاطات[1] . هذه المخاوف كانت مبررة إذا أخذنا في الحسبان النشاط الكبير الذي كانت تمارسه الحركات الوطنية في الحجاز.

ففي سنة 1950 طلب المدعو "مهني بن حليمة" جواز سفر إلى الحج، لكن الإدارة الاستعمارية رفضت الأمر نظرا للنشاطات السياسية لهذه الشخصية، التي كانت تنعتها فرنسا "بمصالي الثاني"،وكان عضوا نشيطا في حزب الشعب، لكن تغلغل الحركة الوطنية والحزب في صفوف نقابة عمال الميناء ساعدته على ركوب السفينة بمعية شخص آخر اسمه "زدينة بلقاسم" مناضل من مدينة المدية وأثار ذلك امتعاض السلطات الفرنسية[2] ،كما أن مناضلي الحركة الوطنية كانوا يستغلون فرصة الحج وظروف التنظيم للصعود للسفينة أثناء مراسيم توديع الحجاج.

وكانت طريقة نقل الحجاج إلى البقاع المقدسة من المسائل التي أثارها وندد بها نواب الحركة الوطنية في الجمعية الجزائرية منهم "أحمد بومنجل" و"بوتارم" ، و"شكال دحو"و"آيت علي"و"آيت شعلال"و"برخروخ"،انطلاقا من الظروف التي نقل فيها الحجاج في موسم عام1950 وتعهدوا بتقديم شكوى إلى الحاكم العام، كما بعث "الشاذلي المكي" بتلغرام "لعبد الرحمن عزام" يندد بسوء معاملة فرنسا للحجاج الجزائريين،حيث جاء في التلغرام ما يلي:"... لقد غادرت السفينة"Anne Marie"الجزائر في الخامس سبتمبر متجهة إلى الحجاز، هذه السفينة عبارة عن مركب شحن أجريت عليه تعديلات لنقل الحجاج الجزائريين، الذين يسافرون في نفس الظروف التي يتم فيها نقل قطعان الحيوانات، لقد تركت السفينة "آن ماري" وراءها ثمانين حاجا جزائريا، رغم أنهم دفعوا تذاكر النقل واستوفوا جميع الإجراءات اللازمة للذهاب إلى الحج، ولقد قام النواب الجزائريون من جهتهم بالتنديد والاستنكار بظروف نقل الحجاج، وتدخل الإدارة في الشؤون الدينية للجزائريين، هذا المركب سوف يحط اليوم أو غدا في بورسعيد، أسألك باسم كل علاقات وروابط الأخوة التي تجمع الجزائر ومصر، وأتوسل إلى سيادتكم لإرسال مندوب من طرفكم إلى بورسعيد ليجري تحقيقا حول هذه القضية، وكل الإجراءات الفرنسية التي تعتبر حقدا ضد العروبة والإسلام... سأكون جد ممتن إذا تدخلتم باسم الأخوة والإنسانية لدى السلطات الفرنسية، لكي تضعوا حدا لهذه الممارسات ضد الإسلام، ولكي يتم وضع سفينة أخرى تحت تصرف الحجاج في رحلة الإياب، نحن جد مندهشون ومستاؤون من تدخل فرنسا في شؤون الدين الإسلامي في الجزائر، وهي التي طالما تشدقت

(1) AOM, Rapport 1949, 5I199.
(2) AOM, Rapport Merle 1950, 16H93.

بمبدأ فصل الدين عن الدولة، وأضحت تحشر نفسها في أمور لا يفهمها ولا تعني إلا المسلمين أنفسهم، في وقت تمنح حرية كاملة للكاثوليك واليهود في إدارة شؤون دينهم"[1] .

والظاهر أن هذه البرقية الشديدة اللهجة كان لها وقع إيجابي،حيث راسل نائب شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن سفير فرنسا بهذا الشأن[2] .

أما سنة 1951فقد شهدت أداء زعيم الحركة الوطنية مصالي الحاج مناسك الحج، واستقبل بعد نزوله في المطار من طرف ضابط سعودي، ونقله بسيارة دبلوماسية من نوع"Cadillac" إلى إقامة مهيئة له وبحراسة مشددة،وقد تباحث بعد أدائه مناسك الحج، مع ممثلين عن الحكومة الباكستانية، وتلقى منهم دعوة لزيارة باكستان ولكنه رد الدعوى باعتذار وأدب[3] .

ويبدو أن عيون المخابرات الفرنسية كانت تترصد حركات وسكنات مصالي الحاج،حيث كلف أحد الجزائريين بحراسته،ويشرح هذا الأخير كيف تتبع مصالي في الحرم وصلى بالقرب منه، وكيف التقى بجموع الحجاج المصريين والتوانسة[4] ،ولا ندري إن كان هذا المخبر قد ذهب بنية الحج، أو بنية تتبع ومراقبة مصالي الحاج ؟

كما اتهم في هذا الموسم نائب قنصل فرنسا بجدة، بمساعدة الوطنيين إلى الهجرة والإقامة في الحجاز[5] . ونرجح أن يكون المقصود بذلك الحاج "حمدي بلقاسم" بكونه نائبا للقنصل يتولى منصبا شرفيا. كما تم الإخطار عن مناضل من تيزي وزو اسمه "محمد محمود" يعمل حلاقا في مكة،عضو في حزب الشعب مقيم هناك منذ سنة 1945،ويقوم بالدعاية ضد فرنسا، وكان يصرح أنه لا ينوي الرجوع إلى الجزائر حتى تتخلص نهائيا من الاستعمار. كما انتهز المدعو "عواد الداودي" الممرض العضو في البعثة الطبية الفرصة للقيام بدعاية كبيرة في أوساط الحجاج لصالح الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ولرئيسه فرحات عباس[6] .

(1) AOM, Rapport Merle 1950, 16H93.
(2) Ibid.
(3) AOM, SLNA، Pèlerinage 1951, 5I200.
(4) AOM, Rapport Benaala, 5I200.
(5) AOM,SLNA , Pèlerinage Rapport Benhamadine, 5I200.
(6) AOM, SLNA, Pèlerinage 1951, 5I200.

كما استغل نشطاء من حركة انتصار الحريات الديمقراطية الفرصة لتوزيع جريدة المنار،وهم على التوالي "صحراوي محمد"،"شرفي محمد"، "بلعباسي لخضر"، وكانوا كلهم يعملون تحت إمرة المناضل "سويح الهواري"[1] .

كما منعت الإدارة الاستعمارية بعض مناضلي الحركة الوطنية من الذهاب إلى الحج على غرار "مخطاري رابح" رغم أنه قدم جميع الوثائق واستوفى جميع الشروط، والذي أظهر في انتخابات 17 جوان 1951،عداءً وانتقادً لاذعين للإدارة الاستعمارية، وكان رد الإدارة الاستعمارية على طلبه بالعبارة التالية: "يمكنك انتظار سفينة يملكها فرحات عباس أو مصالي الحاج لتقلك إلى الحج"[2] .

كما كان الحج في تلك السنة مناسبة للقاء مصالي الحاج بالشاذلي المكي ممثل الحركة الوطنية في القاهرة وفي مكتب المغرب العربي،حيث سافر هذا الأخير إلى جدة خصيصا للقاء مصالي[3] . وانتهز هذا الأخير الفرصة ليقوم بجولة زار فيها العديد من البلدان،بدءا من القاهرة ،حيث التقى أعضاء مكتب المغربي العربي،والتقى بشكيب أرسلان، وأجرى لقاء مطولا مع عبد الكريم الخطابي، والملك محمد الخامس، وبورقيبة،وعزام باشا[4] .

والطريف أنه حتى الحزب الشيوعي كان ينتهز فرصة الحج، لبث ونشر الدعاية الشيوعية، حيث تم العثور على مناشير شيوعية في رحلة الذهاب في موسم الحج لسنة 1952،مطبوعة في الاتحاد السوفياتي وزعت على ظهر السفينة،وقد وجهت أصابع الاتهام للبعض من طاقم السفينة[5] .

وفي هذه السنة أصبح نشطاء الحركة الوطنية يفضلون الحج برا، وذلك لسهولة الاتصال عكس الرحلات مع البعثة بحرا المقيدة والمراقبة. وفي هذه السنة دائما وزع على الحجاج منشور شديد اللهجة بقلم مصطفى بشير المدعو "المهدي محمد لخضر" ممثل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في القاهرة، وكان كاتبا صحافيا في جريدة" La république Algérienne"،كما حاول طاقم السفينة "Mekka"،وهي سفينة مصرية كانت السلطات الاستعمارية تقوم بكرائها

(1) AOM, SLNA, Rapport sur l'activité des nationalistes a Oran a l'occasion du départ des pèlerins,5I200.
(2) AOM,5I199.
(3) AOM, Renseignement Sept 1951, 10CAB204.
(4) Merzouk Khaled, **Messali Hadj**, Alger,EL DAR OTHMANIA Edition, 2008، P192.
(5) AOM, Rapport Bucco 1952, 81F841.

لنقل الحجاج الجزائريين في فترة الخمسينات،القيام بالدعاية للوحدة العربية ورفعوا صور "محمد نجيب"[1] ،وهذا من شأنه أن يفسر العثور على صور الرئيس المصري في وهران وعنابة[2] .

كما سافر أعضاء من حركة الإخوان المسلمين مع البعثة المغاربية على ظهر السفينة "مكة"، وتوترت الأجواء،بعدما حاولوا السيطرة على الخطابة في مسجد السفينة،وكما أظهروا شدة في الإنكار على بعض البدع، هذه التصرفات التي لم يستصيغها الحجاج الجزائريين.

كما ندد نواب عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية في موسم الحج لسنة 1953بتخصيص السفينة "آن ماري" السيئة الذكر التي ذكرناها آنفا، والتي كانت في الأصل مخصصة لنقل الحيوانات، وقد قدم هؤلاء النواب شكوى جاء فيها:" باسم الساكنة المسلمة "Au nom de la population musulmane"نحن منتخبي حركة انتصار الحريات الديمقراطية نندد بشدة بالتدخل السافر وغير المقبول للإدارة في شؤون الحج، وكذلك ضد ظروف السفر الصعبة بسبب تعمد اختيار سفن شحن قديمة مثل "آن ماري"، وهي سفينة لنقل الحيوانات، كما أننا نطالب بتعويض تسعين حاجا زج بهم في أسفل السفينة، رغم دفعهم ثمن تذاكرهم" الموقعون على الشكوى، أحمد مزغنة، بوقادوم، أحمد خيضر، ونواب الجمعية الجزائرية بلحاج، أحمد بودة، شرشالي، جيلاني، دماغ العتروس، فروخي، مصطفاي"[3] .

وفي موسم الحج لسنة 1954 حاول طبيب البعثة الدكتور "الخالدي" النزول في بورسعيد ،حيث التقى هناك بفرحات عباس،الذي كان مدعوا في حفل الذكرى الثانية لاندلاع الثورة المصرية، ليشق طريقه بعد ذلك إلى القاهرة،ثم من هناك إلى السويس،ليدرك السفينة قبل فوات الأوان[4] . كما حاول المناضل "محمد خيضر"،والذي كان هاربا إلى مصر، الاتصال ببعض الحجاج في السويس.

كما تم الترويج بمعلومات مفادها أن السلطات السعودية رفضت السماح دخول الحجاج المغاربة لأداء فريضة الحج، بعدما أمضوا وثيقة تنحي السلطان محمد الخامس عن العرش، وكانت هذه الإشاعات غير صحيحة، لكن ما هو

(1) AOM, Rapport 1953, 81F840 .
(2) AOM, Rapport Freychet 1953, 81F841.
(3) Alger républicain, "scandale de l'Anne Marie",8 Sept 1953.
(4) AOM, Rapport Durney 1954, 81F841.

مؤكد أن وفود البلدان المغاربية لقيت برودة شديدة من طرف السلطات السعودية الرافضة لقرار عزل السلطان "محمد الخامس"[1] .

كما عاودت السلطات الاستعمارية انتهاج نفس الأساليب القديمة بمنع بعض الوطنيين من الذهاب إلى الحج، ففي هذه السنة رفض طلب المناضل " أحمد طاهر ولد قدور" من تيارت،من الذهاب إلى الحج بعدما نعته تقرير بوليسي "بالوطني الخطير Nationaliste notoire et dangereux"[2] . كما دعا نشطاء الحركة الوطنية في تلمسان في هذا العام الحجاج الجزائريين إلى مقاطعة وسائل النقل الفرنسية، وتفضيل على ذلك الحافلات التابعة لملاك مسلمين جزائريين، وللإشارة فإن بعض شركات النقل البري التي كانت تنقل الحجاج في رحلات منظمة، كانت ملكا لبعض مناضلي الحركة الوطنية[3] .

وهكذا وصل النشاط السياسي للحركة الوطنية مداه ولم يترك وسيلة للتعريف بالقضية،إلا واستعملها بما في ذلك التظاهرات الدينية مستغلا التجمعات بما في ذلك مواسم الحج، بدءا بمراسيم توديع الحجاج وما يتخللها من إخفاقات ونقائص تكون مناسبة للتنديد بالإدارة الاستعمارية، وطرح مسألة فصل الدين عن الدولة، التي كانت القضية الأزلية في الصراع بين الإدارة الاستعمارية والحركة الوطنية، وما إن أطلت سنة 1954، السنة المحورية في تاريخ الجزائر،حتى سادها مخاض عسير سوف تنبثق عنه أقصى تجليات العمل الحركي الثوري في الجزائر،حيث كان موسم الحج لسنة 1954 (1373هـ) آخر مواسم الحج قبل دخول الجزائر أتون حربها التحريرية،بما يشذ عن باقي المواسم ،حيث حاولت الحركة الوطنية استغلال هذه الفريضة الدينية لبث نشاطاتها، وزاد من ذلك خصوصيات هذه السنة، حيث حضر موسم الحج لهذا العام شخصيات سياسية تمثل زعماء العالم الإسلامي، على غرار الرئيس جمال عبد الناصر،الملك ابن سعود رئيس حكومة الباكستان غلام محمد ،كما حضره البشير الإبراهيمي، وشكلوا بذلك مؤتمرا إسلاميا كبيرا، وتعاهدوا على عقد هذا المؤتمر كل سنة،وتقرر إنشاء أمانة لهذا المؤتمر في القاهرة يشرف عليها أنور السادات[4] .وبهذا وكما ذكرنا آنفا،استغلت الحركة الوطنية فرصة تنظيم الحج لبث دعاياتها ونشاطاتها، وأصبح موسم الحج فرصة لالتقاء الشخصيات السياسية في الداخل والخارج فيما بينها،وهذا رغم تضييق السلطات الاستعمارية.

---

(1) AOM, Renseignement Sept 1954,5I202.
(2) AOM, 5I202.
(3) AOM, Propagande particulière en milieu musulman 1954, 5I202.
(4) AOM, Note sur le pèlerinage 1954, 81F841.

خاتمة:

وبهذا وكما ذكرنا آنفا،استغلت الحركة الوطنية فرصة تنظيم الحج لبث دعاياتها ونشاطاتها، وأصبح موسم الحج فرصة لالتقاء الشخصيات السياسية في الداخل والخارج فيما بينها،وهذا رغم تضييق السلطات الاستعمارية،التي كانت تقف عاجزة رغم سياسة التضييق والمنع،عن وقف نشاطات الحركة الوطنية المتزايدة في استغلال مواسم الحج للتعريف بالقضية الوطنية، فهذه التيارات الوطنية كلها بما فيها الحزب الشيوعي كما رأينا لم تفوت الفرصة في كشف سياسة الإدارة الاستعمارية في خنق والتضييق عن الحريات الدينية في الجزائر،وبث دعايتها في صفوف الحجاج للتعريف بالقضية الوطنية من جهة،وتفعيل نشاطاتها بغية نسج علاقات مع دول وحكومات والحركات الوطنية في العالم الإسلامي هذا على الصعيد الخارجي،أما في الداخل فلم تترك الحركة الوطنية أي فرصة لتنديد بسياسة الإدارة الاستعمارية وفشلها في الإشراف على شؤون الحج،وظهر ذلك عن طريق الصحافة،أو عن طريق تقديم العرائض في مختلف المجالس المحلية، والجمعية الجزائرية، كل ذلك لشجب سياسة فرنسا الدينية الفاشلة في تأطير فريضة الحج والمصادرة لأوقاف الجزائريين، والمتحكمة في شؤون الدين الإسلامي عبر الوظيفة الدينية الرسمية،وانتهاء بمنع تطبيق قانون فصل الدين عن الدولة ليشمل شؤون الدين الإسلامي كما كان الشأن مع الديانات الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

1. جريدة الشهاب،حديث الحجاج ،العدد102 ،2أبريل 1938.
2. جريدة الشهاب ،وداع الحجاج، العدد127، 20جانفي1939.
3. AOM(**Archives d'outre mer , Aix-en- Provence, France**)
4. AOM, Note sur le pèlerinage 1945, 81F841..
5. AOM, Pèlerinage 1946, 81F841.
6. AOM, Renseignement, 5I199.
7. AOM, Renseignement 1947, 4I77.
8. AOM, Rapport Tracol 1947, 81F839.
9. AOM, SLNA, Pèlerinage 1950, 5I200.
10. AOM, Renseignement sur l'Imam EL Mahdi, 4I176.
11. AOM, Pèlerinage 1952, 81F840.
12. AOM, SLNA, Pèlerinage 1950, 4I176.
13. AOM, Rapport pèlerinage a la Mecque 1951,5I200.
14. AOM, Rapport 1954,81F647.
15. AOM, Pèlerinage 1954, 5I202.
16. AOM, Renseignement confidentiel, Jan.1933, 16H97.
17. AOM, Renseignement confidentiel, 27Fev.1936, 16H97.
18. AOM, Rapport Bencheneb 1946, 81F841.
19. AOM, Pèlerinage 1945, 5I199.
20. AOM, Renseignement, 16H92.
21. AOM, Rapport 1949, 5I199.
22. AOM, Rapport Merle 1950, 16H93.
23. AOM,SLNA, Pèlerinage 1951, 5I200.
24. AOM, Rapport Benaala, 5I200.
25. AOM, SLNA, Pèlerinage Rapport Benhamadine, 5I200.
26. AOM, SLNA, Pèlerinage 1951, 5I200.
27. AOM, SLNA, Rapport sur l'activité des nationalistes a Oran a l'occasion du départ des pèlerins,5I200.
28. AOM, Renseignement Sept 1951, 10CAB204.
29. AOM, Rapport Bucco 1952, 81F841.
30. AOM, Rapport 1953, 81F840 .
31. AOM, Rapport Freychet 1953, 81F841.

32. Alger républicain, "scandale de l'Anne Marie",8 Sept 1953.
33. AOM, Rapport Durney 1954, 81F841.
34. AOM, Renseignement Sept 1954,5I202.
35. AOM, Propagande particulière en milieu musulman 1954, 5I202.
36. AOM, Note sur le pèlerinage 1954, 81F841.

Thèses :

37. Chantre Luc, Le pèlerinage a la Mecque a l'époque coloniale,(1866-1940) :France –grande Bretagne –Italie, thèse de doctorat, université de Poitiers, 2013,P118.
38.

Sources éditées :

39. Merzouk Khaled, Messali Hadj, Alger,EL DAR OTHMANIA Edition, 2008 ، P192.